مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

مصر بين الحركة الوطنية والاستراتيجية البريطانية ١٨٧١-١٨٨٢: دراسة تحليلية

د. رقية عبدالكريم فرج اللّه على

دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة أسوان

DOI: 10.21608/qarts.2024.246938.1794

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٣) العدد (٦٢) يناير ٢٠٢٤

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

مصر بين الحركة الوطنية والاستراتيجية البريطانية ١٨٧١-١٨٨٢:

دراسة تحليلية

الملخص:

تعالج هذه الدراسة موضوع تبلور الفكر الوطنى النهضوى فى مصر بقدوم المفكر الإصلاحي "جمال الدين الأفغاني" إليها في مارس من العام ١٨٧١م من الأستانة (استانبول حاليا) عاصمة الدولة العثمانية والذى رحب به "الخديوى إسماعيل" حاكم مصر والسودان آنذاك لرغبته في الاستفادة من علم الأفغاني لتأسيس مدرسة عليا للإصلاح الدينى العلمى والأدبي، فضلا عن شهرة الأفغاني فى مناهضة السيطرة الأوربية على ثروات مصر والذى اتضح منذ العام ١٨٧٦م، ولم تكن نزعة الأفغاني نحو الحكم الديموقراطي ومناهضة الحكم الدكتاتوري تقلق الخديوى إسماعيل لحكمه المطلق للبلاد. وعلى الجانب الآخر، كانت بريطانيا قد خطت خطوات ثابتة ومدروسة لاحتلال مصر والسيطرة على ثرواتها ولو بالقوة المسلحة، فلكى تتخلص من الحركة الإصلاحية بمصر حملت السلطان العثماني "عبدالحميد الثانى" على خلع الخديوى إسماعيل لتفادى إقامة حكم ديموقراطي وحياة نيابية كأحد تداعيات الحركة الإصلاحية بمصر، وفى سبتمبر ١٨٨٢م مع اكتمال احتلال بريطانيا لمصر بالقوة المسلحة بحجة حماية الخديوى توفيق من دعاة الفكر الإصلاحي وقادة الحركة الوطنية بتياراتها الثلاثة: الثورية أمثال أحمد عرابى وأديب إسحاق والدستورية أمثال محمد شريف وعبدالسلام المليجى والاسلامية أمثال محمد عبده كلهم كانوا تلاميذ جمال الدين الأفغاني ، وبالفعل تخلصت بريطانيا منهم ونفتهم خارج البلاد وحكمت مصر بالحديد والنار لإحباط عزيمة المصريين نحو أى إصلاح من أى نوع ،فقد كانت أيديولوجيتها تجاه مصر تهدف إلى السيطرة الكاملة على الاقتصاد المصرى بموارده الطبيعية والبشرية وجعل مصر سوقاً للمنتجات البريطانية وبسط نفوذها الكامل على ممر قناة السويس الاستراتيجى للملاحة البريطانية ف٧٠٪من تجارتها الخارجية تمر به.

الكلمات المفتاحية: الحركة الوطنية ،التيارات، الاستراتيجية ، الخديوي

مصر قبل جمال الدين الأفغاني:

على الرغم من أن الدولة العثمانية استطاعت أن تحتل مكانة عالمية كدولة إسلامية مترامية الأطراف إلا أنها اتبعت سياسة مستبدة بحكمها المطلق تجاه الشعوب الهائلة بمصر والولايات الأخرى ولم ترق إدارتها سواء المركزية باستانبول أو المحلية بمصر والولايات الأخرى لأدنى حدود الإدارة الحكيمة ، ومن ثم استشرى الفساد الإدارى والركود الاقتصادى والعلمى فعم الفقر والجهل والقهر، ويرجع ذلك لاقتصار اهتمام السلطان على الشئون العسكرية[١]. وبذلك يمكننا القول أن الدولة العثمانية لم تكن مهتمة بقيام حضارة قوية على أسس علمية أو معالم فكرية مستنيرة مما كان له بالغ الأثر على استمرار ضعف وتخلف مصر وباقى بلدان الدولة العثمانية. ففى رحلته إلى مصر والشام فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وصف الرحالة الفرنسي الشهير "فولنى (Vollny)" حال الشعب المصرى والسورى واللبناني والفلسطيني والأردنى مؤكدا على استحكام الجهل في عقولهم بصورة كاملة ومتحكما فى جميع الطبقات الاجتماعية المحكومين، موضحا أن الجهل قضى على أى تقدم لو طفيف في الدولة العثمانية والولايات التابعة لها ، ولم تكن الحياة الاقتصادية بأحسن حظا من الحياة العلمية والاجتماعية فلم تتقدم الصناعات اليدوية البسيطة قيد أنملة إلى درجة يستحيل معها وجود من يصلح الساعة الشخصية المشهورة لدى الأوروبيون فى تلك البلدان آنذاك أى من أفراد تلك الشعوب واقتصر تصليح تلك السلعة المستوردة على الرعايا الأوربيين بتلك البلدان[٢]، وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن الجهل الذى ساد تلك الولايات العثمانية في الشرق والذى تفشى بين الشعوب الإسلامية بفعل إهمال حكام الدولة العثمانية للتعليم نجد أن الأزهر الشريف بالقاهرة يقوم علماءه

د.رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، (١) ٢٠٠٣،ص٢٦٩.

(٢) د.أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٦.

على تدريس العلوم الشرعية دون غيرها، كما أنهم اعتمدوا الحفظ والاستذكار وتلقين المادة العلمية للطلاب وعدم السماح لأى اجتهاد في أمور الدين التى لم يرد عليها نص صريح من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة باعتباره بدعة وإن كان ضرورى لمتطلبات العصر[٤].

وفى وسط هذه الأجواء المظلمة ظهرت الدعوة الوطنية وإن كانت قد اقتصرت على رد المظالم وأخذ حقوق فئوية بالشعب المصري من الحاكم وحاشيته، ففى شهر ذى الحجة من العام ١٢٠٩هجرية الموافق١٧٩٥م قدم إلى "عبدالله الشرقاوي" شيخ الأزهر وفد من ممثلى فلاحى قرى مركز بلبيس حكمدارية (محافظة حاليا) الشرقية يشكون ظلم مماليك حاكم إقليم الدلتا "محمد بك الألفى" وفرضهم الضرائب الباهظة على الفلاحين، فاستطاع كبار علماء الأزهر بزعامة الشرقاوي ونقيب الأشراف "عمر مكرم" إرغام الأمراء المماليك والباشوات العثمانيين وعلى رأسهم الوالى على عدم فرض ضرائب جديدة على الفلاحين وإلغاء ما استحدث منها [٥]، وتم توثيق تلك الالتزامات التى أُلزم بها الوالى والأمراء المماليك أمام كبار علماء الأزهر مع إعلانهم التوبة عن ظلم الشعب المصري والتى أطلق عليها وثيقة حقوق الانسان[٦]،مما يعد تطورا ملموسا في الإصلاح بدفاعهم عن الشعب المصري ضد ظلم الحكام العثمانيين والمماليك على حد سواء[٧]وعندما أخل

(٤) د. عمر محمد بكر: إطلالة على تاريخ مصر الحديث، مطبعة الحرية، القاهرة، ١٩٩٦،ص١٠.

(٥) مذكرات الرئيس محمد أنور السادات :دار الهلال للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٨٥،ص٢٥٨. وأيضا: د.عبدالعزيز الشناوى: عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص٧٩.

(٦) الديوان العالى بدفتر خانة الشهر العقاري المصرى : محفوظات المحكمة الشرعية سابقا والخاصة بالمحاكم المصرية في العصر العثماني ، سجل رقم ٢ ، مادة ٤٧٣، صحيفة ٣٠٠.

(٧) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المجلد الأول ، المطبعة العامرة، القاهرة،١٣٢٢هجرية،ص١٥٣.

هؤلاء الحكام بالتزامهم قرر الشعب المصري بزعامة علماء الأزهر الثورة عليهم من العام١٧٩٦وحتى ١٧٩٨م ولولا احتلال فرنسا لمصر في صيف١٧٩٨ لحكموا مصر[٨]

وعندما احتل قائد القوات الفرنسية "نابليون بونابرت" مصر أدرك خطر الصدام مع دعاة الفكر النهضوى بمصر والشعب المصري الثائر فعمل على تهدئتهم بتأكيده بأنه أتى لدعم ثورتهم ضد ظلم الوالى والمماليك، كما شاركهم في احتفالاتهم الدينية وعين دعاة الفكر الإصلاحي النهضوى بديوان القاهرة بحجة إشراكهم معه في حكم مصر برغم أن ذاك المجلس المعروف بديوان القاهرة لم يعدوا عن كونه يخضع لتوجيه المحتل[٩] الأمر الذى أدى إلى فشله ، فما هى إلا ثلاثة أشهر حتى قامت ثورة القاهرة الأولى ثم تبعتها ثورة القاهرة الثانية بقيادة عمر مكرم في مارس١٨٠٠م على المحتل الفرنسى [١٠] وبرغم قمعهما من قبل المحتل الفرنسى إلا أنهما كانتا تمثلان التفاف الشعب المصري حول رموز الشعب والحركة الوطنية الرافضة للاحتلال.

ومع ظهور محمد على كمرشح قوى لحكم مصر بعد جلاء الاحتلال الفرنسي عنها منذ١٨٠١م بفعل تودده لرموز الحركة الوطنية، وبعد إقدامهم على خلع الوالى العثمانى "خورشيد" وتولية محمد على[١١] أصر الأخير على القضاء عليهم لينفرد بحكم مصر

(٨) محمد فريد أبوحديد: زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم، سلسلة كتاب الهلال،عدد٥٧، القاهرة، ١٩٥١،ص٥٨.

(٩) د. مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية وجذور النضال المصرى،مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٥،ص ٣٦.

(١٠) عبدالرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار،المجلد الثالث، ص١٠٣.

(١١)عبدالرحمن الجبرتي: نفسه،ص٣٤٩.ومجلد٢، ص٤٣٤

دون منازع[١٢]. وبرغم أنه أراد نهضة مصر وتحديثها على النسق الأوروبى اقتصاديا وعسكريا وعلميا وحضاريا لتكون مركزا لإمبراطوريته فى محيطها الذى يشمل السودان والحجاز والشام، إلا أن نظام حكمه كان هشا لعدم تأييد الشعب له فسقطت إمبراطوريته بسقوطه عام١٨٤٠م على يد القوى الأوربية بزعامة بريطانيا[١٣]، بينما كانت البعثات العلمية التي أرسلها للجامعات الأوربية قد أفرزت دعاة جدد للفكر الإصلاحي المستنير للنهوض بمصر.

جمال الدين الأفغاني ونهضة مصر الإصلاحية الوليدة ١٨٧١-١٨٨١م

عندما جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر فى مارس١٨٧١م فور انتهاء رحلته للحج بالحجاز[١٤]كان الفقر والقهر قد عم مصر بفعل انفراد أسرة محمد على بالحكم وصاحبه حالة غليان فى صفوف طلاب البعثات العلمية العائدين من أوروبا بفكرهم وحماسهم الإصلاحي المستنير فالتفوا حول الأفغاني لمعرفة طرق الإصلاح والنهضة الشاملة لمصر فألقى دروسه في الحرية وحقوق المواطن وواجبات الحاكم وحقوق المواطنين وكيفية الحصول عليها من الحكام وكيفية إصلاح ونهضة مصر فى كل المجالات للنهوض بالأمة العربية والإسلامية، وعلم الأدباء والكتاب كيفية تسخير مواهبهم الأدبية والشعرية لخدمة المجتمع المصرى من خلال مطالبة الحاكم بحق الشعب ودفع الظلم عنه وطالب الشعب بالمطالبة الصريحة بدفع الظلم عن أفراده وعدم خشية الحاكم، وبذلك أقنع الشعب المصري بأن الحاكم يمكن خلعه لدرء ظلمه، فتتلمذ على يديه من كل

نفسه، مجلد ٤، ص ٩٩. وأيضا:مقالة لمحمد عبده بعنوان"ظلم محمد على " مجلة المنار، عدد٢، بتاريخ (١٢)يونيو ١٩٠٢.

(١٣) مصطفى محمد رمضان : مرجع سابق، ص١٦٥.

(١٤) د. محمد عمارة: مسلمون ثوار، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨، ص٣٧١.

الطوائف والأوساط الثقافية أمثال الأديب "أديب إسحاق" والصحفى "يعقوب صنوع" وعالم الأزهر "محمد عبده" والحقوقى "سعد زغلول" والسياسى "إبراهيم الهلباوى" والعسكرى "أحمد عرابى" ونظيره "محمود سامى البارودي" وغيرهم، وكان الأفغاني دائم القول بأن مصر لن تحيا ولا العرب ولا المسلمين إلا بحاكم عادل يشاركه الشعب فى الحكم فلا عدل إلا بالقوة المقيدة بالدستور للحاكم(١٥) .

وقد عاش الأفغاني حياته رحالة فى بلدان المسلمين للعمل على إصلاحها والتصدي لتلك الهجمة الأوروبية الشرسة وخاصة البريطانية التى اجتاحتها وليس فقط مصر(١٦)، مؤكدا على ضرورة إنشاء جيش قوى يحمى حدود الدولة وقاعدة فكرية اجتماعية مستنيرة دينيا وعلميا تحمى مصر من تلك الهجمات الفكرية والعسكرية الانجليزية عليها بهدف السيطرة على ثرواتها(١٧) فقد ارتكز في دعوته للنهضة والإصلاح بمصر على نهضة البلاد من خلال الإصلاح السياسي والتعليمى التطبيقى والنظرى، فعلى المستوى السياسى أصر على ضرورة التخلص من نظام الحكم الوراثى المطلق وإقامة حكم دستورى مع الفصل بين السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية)وإقامة برلمان لتشريع القوانين

د. محمد عمارة: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، دار الشروق للنشر
(١٥)والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨،ص٧١
(١٦) د. هالة مصطفى: الإسلام السياسي في مصر بين حركة الإصلاح إلى جماعات العنف، ط٢،مركز المحروسة للبحوث والنشر، القاهرة، ١٩٩٩، ص٦٩.
(١٧) د. عبدالحليم عويس: فقه التاريخ فى ضوء أزمة المسلمين الحضارية، مطابع الوفاء، مصر، ١٩٩٣، ص٥٩.

على النسق الأوروبى(١٨)تلك الدعوة التي لاقت آذانا صاغية لدى المثقفين المصريين والعوام ومن ثم بدأت الحركة للنهضة المصرية الشاملة، ففى مجلس النواب انتشرت المعارضة المصرية لسياسة الخديوى إسماعيل فى حكم مصر طوال فترة انعقاد الدورة النيابية من ١٨٧٥-١٨٧٩م، وكان على رأس المعارضة بمجلس النواب النائب "عبدالسلام المويلحي" أحد تلاميذ الأفغاني والذى طالب في كل كلماته أثناء اجتماعات المجلس بالإصلاح السياسي والتعليمي والاقتصادى ليستقيم المجتمع وتنهض الأمة المصرية، وكان المويلحى قد اتبع نهج الأفغانى في تصوره للنهضة المصرية بأن يتم انتخاب الحاكم لمصر على نفس نسق الانتخابات البرلمانية الأوربية والقائمة في مجملها على مبدأ الشورى الإسلامى من خلال انتخابات شعبية عامة لاختيار الحاكم(١٩).

أما على مستوى نهضة مصر الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية نجد الأفغانى كان دائم الدعوة إلى العمل على استخدام العقل بحرية غير محدودة في التعليم، فطالب بإنشاء مدراس للعلوم التطبيقية والطبيعية والنظرية جنبا إلى جنب مع العلوم الشرعية مع مجانية التعليم، فعارضه علماء الدين التقليديين من مشايخ الأزهر(المتطرفين) الذين حرموا تناول العلوم التطبيقية والطبيعية من جانب وبعض القادمين من البعثات الدراسية بأوروبا والمطالبين بتقليد الأوربيين في كل شئ ودحر الدين جانباً(العلمانيين) من جانبٍ آخر بينما حذر الأفغانى وتلاميذه رواد الحركة الوطنية من التقليد الأعمى لكل ما في المجتمعات الغربية وطالبوا بإقامة جيش عسكرى وطنى وقاعدة فكرية اجتماعية قوية بتعاليم الدين لتحمى الدولة المصرية من تلك الهجمات الفكرية والسياسية والعسكرية

(١٨) د. محمد عمارة : جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص٩٨. وأيضا:د.محمود كامل: الإسلام والعروبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩،ص٦٩.

(١٩) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده، الجزء الأول، مطبعة المنار، القاهرة، د.ت، ص٣٦.

البريطانية والاوربية الهادفة للسيطرة على مصر[٢٠]، فقام كوادر الحركة الوطنية بإنشاء الصحف والمجلات وأصدر "أديب إسحاق" مجلته الأولى بمصر والتى سميت بمجلة "مصر" لنشر مقالات الأفغانى وكيفية قيام نهضة حقيقية بمصر في كل المجالات وخاصة التعليم والسياسة باسمه أحيانا وباسم مستعار أحيانا أخرى، كما أصدر مجلة "التجارة" بالإسكندرية كتب في تلكما المجلتين كل من الأفغانى وسعد زغلول ومحمد عبده وغيرهما من تلاميذ الأفغانى كوادر الحركة الوطنية[٢٢].

وعلى هذا الأساس ظهرت آثار توعية الأفغانى للملتفين حوله بالصورة الحقيقية لمصر بما يمثل عقبة حقيقية أمام نهضتها والحلول المنطقية لها بخطبه بالمقاهى والمساجد ومقالاته في جريدتى التجارة ومصر فتناولها المثقفين والعامة بالقاهرة خاصة والأقاليم المصرية عامة والتفت حوله المثقفين المصريين والشاميين بالقاهرة ومنذ تلك الآونة بدأت حركة النهضة مصر في القرن١٩م، فأكد الأفغاني على ضرورة الاستعاضة عن الحكم المطلق بالدستورى ومجانية التعليم المجانى والاهتمام بالبحث العلمى وتنمية الاقتصاد، ففى مقالة له بجريدة مصر بعنوان "الحكومة الاستبدادية" طالب الشعب المصرى بالثورة لوقف إذلال الحكام لهم واغتصابه لحقوقهم[٢٣].

ومجمل القول أن مقالات الأفغانى كانت تعتمد على إثارة المصريين وإحياء الثورة بداخلهم للمطالبة بحياة كريمة، فأيقظ المصريين بعد ثبات استمر منذ حكم محمد على المطلق لبلادهم أى ما يقرب من ستين عاماً ، ومن ثم ثار تلاميذه على الخديوى إسماعيل وأجبروه على إنشاء حياة نيابية حقيقية في مصر وإقامة دستور عام للبلاد، كما حمل

(٢٠) د. عبدالحليم عويس : مرجع سابق، ص٥٩.

(٢٢) جريدة مصر، عدد٣٢، بتاريخ ٧فبراير١٨٧٩م.

(٢٣) جريدة مصر، عدد ٣٣، بتاريخ ١٤فبراير ١٨٧٩م.

وتلاميذه لواء المعارضة ضد التدخل البريطانى الفرنسى في شئون مصر الداخلية سواء في الصحف الوطنية كمصر والتجارة وغيرها أو بمجلس شورى النواب، فمنذ افتتاحه للمناقشة ظهرت جرأة المعارضة الوطنية بالمجلس في تناول قضية التدخل الأجنبى في شئون مصر الداخلية كرد فعل على إجبار كل من انجلترا وفرنسا للخديوى إسماعيل على تعيين وزيراً للمالية انجليزى وآخر للأشغال فرنسى بالحكومة المصرية دون تشريعه فعليا من مجلس شورى النواب باعتباره السلطة التشريعية واكتفى إسماعيل بطرح الأمر للنقاش بالمجلس فقط، وبرغم ذلك زفت الجرائد المصرية الوطنية بشرى دخول مصر عصر النهضة السياسية وتحويل الحكم من المطلق إلى الدستورى[٢٤]، ومما لا شك فيه أن المصريين كانوا قبيل مجيئ الأفغانية على أتم الاستعداد للنهضة فقد ظهر الشباب في ثوبهم الجديد بعد العودة من البعثات العلمية إلى أوربا ورغبتهم في إقامة نهضة مصرية محتفظة بتعاليم الإسلام ولكنهم افتقدوا الجرأة لتحقيق ذلك، كما أن المدارس العلمية الحديثة والتى أنشأها محمد على ثم أهملت في عهد خلفائه استعاد الخديوى إسماعيل نشاطها[٢٥].

وعلى الجانب الآخر كانت انجلترا وفرنسا في سباق محتدم للسيطرة على مصر ولو بالقوة المسلحة لعدة اعتبارات أهمها كون مصر البوابة الشمالية للقارة الإفريقية، كما أنها مصب نهر النيل الذى يعتبر أطول أنهار العالم وبالتالى فإن السيطرة على مصر يعنى السيطرة على وسط وجنوب القارة الإفريقية(٢٦)، فنجد كل من بريطانيا وفرنسا تتسابقان

(٢٤) جريدة التجارة، عدد ٥٣، بتاريخ ٢٣ ديسمبر١٨٧٨م.

(٢٥) إلياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل ،جـ٢،مطبعة المجمع العلمى المصرى،القاهرة،١٩٢٢،ص١٨٤، ص١٩٣-ص١٩٥.

(٢٦) شحاتة عيسى ابراهيم: الكتاب الأسود للاستعمار البريطانى في مصر، النهضة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٥،ص٥٦.

لإغراق الخديوى إسماعيل بالديون منذ توليه الحكم عام ١٨٦٣م ثم تطالبانه بتسديد تلك الديون بالفوائد المتفق عليها مسبقا عام ١٨٧٥م ليرضخ لتدخلهما فى شئون مصر الداخلية من إرسال لجنة لمراقبة اقتصاد الدولة وماليتها فتعيين وزير المالية بريطانى ونظيره للأشغال فرنسى، الأمر الذى اضطر معه الخديوى إسماعيل للانحياز لكوادر الحركة الوطنية وشجعهم على التوعوية بأهداف ومسالك بريطانيا وفرنسا فى مصر لتعم الشعب المصرى ليجابه بهم الخديوى إسماعيل أطماع بريطانيا وفرنسا الواضحة فى احتلال مصر(٢٧)، وبالفعل نشط الكوادر وعلى رأسهم أديب إسحاق ومحمد عبده ومحمود سامى البارودى وسليم النقاش وإبراهيم اللقانى وسعد زغلول فى كتابة المقالات وامتلأت الصحف الوطنية بمصر وعلى رأسها التجارة ومصر والوطن والأهرام ومرآة الشرق وغيرها بالمقالات التى توضح للرأى العام المصرى أسباب ترديه الفكرى والسياسى والاقتصادى والعسكرى وطرق حل تلك المشكلات للنهوض بمصر فى كل المجالات، مما كان له أكبر الأثر على نمو الوعى السياسى والفكرى والاقتصادى على حدٍ سواء(٢٨).

وعلى الجانب الآخر، كانت الحكومة البريطانية بأيديولوجيتها التى تلخصت فى رغبتها القوية فى السيطرة على الاقتصاد المصرى وقناة السويس ذلك الممر البحرى الدولى الأهم عالمياً، بالإضافة إلى البحرين الأحمر والمتوسط وموارد مصر الهائلة من الفوسفات والحديد والذهب، فضلا عن الثروة البشرية الهائلة التى تجعل من مصر سوقا رائجة للانتاج الاقتصادى البريطانى للقضاء على التضخم الاقتصادى الناجم عن تكدس السلع التجارية وزيادتها عن الاستهلاك المحلى فلابد من البحث عن أسواق خارجية لدفع عجلة التقدم الاقتصادى البريطانى بالسوق المصرية ودول حوض النيل ومنها إلى العمق

(٢٧) أحمد أمين: مرجع سابق، ص٧٣.

(٢٨) د. مصطفى محمد رمضان :مرجع سابق ،ص٢٢٨.

الإفريقى حتى جنوب القارة الإفريقية[٢٩]، فكان بديهيا أن تعمل بريطانيا على تحقيق تلك السيطرة على مصر ولو بالقوة المسلحة.

فمنذ تولى إسماعيل مهام حكم مصر في العام ١٨٦٣م واتضاح اتجاهه بقوة لسياسة الاقتراض من بيوت المال العالمية وجدت الحكومة البريطانية في ذلك مناخاً خصباً لإغراقه في الديون لتجعل من ذلك وسيلة للسيطرة على الاقتصاد المصرى برمته، ووصل الأمر في العام ١٨٦٩م إلى إعلان الحكومة البريطانية عدم قدرة مصر على سداد ديونها بالفوائد والتى تخطت حاجز ٥٧ مليون جنيهاً مصرياً، كما أجبرت إسماعيل على عدم الاستدانة منها مدة خمسة أعوام حتى يستطيع تسديد تلك الديون[٣٠]ولأن الأمر مثل أزمة حقيقية لدى إسماعيل الذى يبدو أنه لم يستطع التخلى نهمه للبزخ فرض المزيد من الضرائب على التجار والاقطاعيين وأصحاب الحرف والصناع وكافة طوائف الشعب مما انعكس بدوره على الحياة اليومية للفرد والمجتمع ، في حين برر الخديوى تلك الخطوة المنهكة للاقتصاد والمجتمع المصرى المنهار بالفعل ليؤكد في كلمته بمجلس شورى النواب في جلسة يناير ١٨٦٩م أنه اضطر فرض تلك الضرائب لتسديد ديون مصر التى اقترضها سابقه وعمه الوالى "محمد سعيد" في فترة حكمه لمصر والتى وصلت إلى ٢٢مليون جنيه مصرى(*)أنه سدد منها مليون وتبقى سبعة عشر مليون جنيه مصرى[٣١].

(29) F.O,407/188,Tel.No164,from Cairo to F.O, Data.Mar8,1921.

(٣٠) د. مصطفى محمد رمضان :مرجع سابق ،ص٢٢٨.

(*) بينما أكدت المصادر الرسمية أن ديون مصر طوال فترة حكم الوالى محمد سعيد في الفترة من ١٨٥٤وحتى ١٨٦٣م لم تتعدى ١١مليون جنيه مصرى .انظر: إلياس الأيوبى: مرجع سابق،ص٢٧٢.

(٣١) محضر بعنوان (كلمة العرش بالجلسة الافتتاحية لمجلس شورى النواب) فى ١٥شوال ١٢٨٥هجرية ،محاضر جلسات مجلس شورى النواب ، دفتر رقم ٢٩٢، مكتبة مجلس الشعب المصرى ، القاهرة.

وعلى الرغم من أن السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى كان قد أصدر فرمانا في العام ١٨٧٠الميلادى يحظر على إسماعيل الاستدانة وفرض الضرائب على الشعب المصرى إلا أن الأخير عقد أكبر قروضه قيمة في العام ١٨٧٣والذى وصلت قيمته إلى ٢٢ مليون جنيه مصرى ، ولم يكد يمر عامان على هذا القرض حتى اضطر إلى بيع أسهم الحكومة المصرية في شركة قناة السويس العالمية لصالح الحكومة البريطانية بمبلغ ٤مليون جنيه فقط لسداد بعض أقساطه من الديون المفروضة عليه وفوائدها(٣٢)، وماهى إلا أربعة أشهر حتى توقفت الحكومة المصرية عن تسديد أقساط تلك الديون وفوائدها والتى كانت كلها للحكومتين البريطانية والفرنسية وإن كانت حكومة لندن صاحبة النصيب الأكبر من تلك الديون، ومن ثم فرضتا المراقبة الثنائية على المالية المصرية العام ١٨٧٥م بتعيين مراقب بريطانى للإيرادات العامة وآخر فرنسى للمصروفات، وما لبثتا أن أنشأتا لجنة مراقبة للسكك الحديدية وميناء الاسكندرية، ومع غضب الشعب المصرى من سماح الخديوى إسماعيل لبريطانيا وفرنسا بالإقدام على تلك الخطوة في طريق احتلال مصر ومناقشة تلك المسألة في جلسات مجلس شورى النواب دخل دعاة تلك الحركة مرحلة الثورة والغليان والرغبة الملحة في تغير نظام الحكم المصرى برمته إن لم يتخذ خطوات جادة في القضاء على التدخل البريطانى الفرنسى في شئون مصر الداخلية، وأمام وقوع الخديوى إسماعيل بين شقى الرُحى فمن جانب نجد بريطانيا وفرنسا لن تفلتا تلك الفرصة من أيدهما وضغطتا بكل قوتهما لاحتلا مصر ومن الجانب الآخر نجد الحركة الوطنية النهضوية تضغط بكل قوتها الغاضبة الثائرة على مسالك بريطانيا ومآربها الواضحة من ذاك التدخل وتطالب إسماعيل بالتخلص منه، فاختار الأخير الاحتماء فى الحركة الوطنية بعد تيقنه من رغبة بريطانيا الواضحة في تحديد سلطاته تمهيداً لعزله

(٣٢) شحاتة عيسى ابراهيم: مرجع سابق، ص٢٧.

تماما عن حكم مصر فاظهر رغبته في إقامة حياة نيابية وديمقراطية في الحكم نزولا لمطالب دعاة النهضة، وبالفعل عقدت انتخابات مبكرة لمجلس شورى النواب في العام ١٨٧٦م [٣٣].

فمن البديهى أن تمارس عليه بريطانيا وفرنسا ضغوطاً غير مسبوقة في شراستها على نطاق الحكام بمصر من خلال المراقبين البريطاني والفرنسى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر تم إرغامها لإسماعيل على إصدار مرسوم في ٢٧يناير ١٨٧٨م بتأليف لجنة تحقيق عليا برئاسة بريطانية لعجزمصر عن تسديد ديونها، فأوصت اللجنة بضرورة تنازل إسماعيل عن بعض سلطاته لصالح حكومة مسئولة يكون وزير المالية فيها بريطانى ووزير الأشغال فرنسى ، الأمر الذى قبله إسماعيل راضخاً وكلف "نوبار باشا" بتكوينها وأعلن إسماعيل تنازله لنوبار عن معظم سلطاته الحاكمة، في حين كان الرأى العام المصرى أشد سخطا على تلك الحكومة التى عرفت بالأوربية لميل نوبار للأيديولوجية البريطانية تجاه مصر ولوجود وزيرين أوربيين بها [٣٤]، ثم أن لجنة التحقيق الأوربية برئاسة بريطانية والتى أوصت بتنازل إسماعيل عن معظم سلطاته لوزارة مسئولة لم تهدف من وراء ذلك إلى منح المصريين حكما ديموقراطيا لبلادهم وإنما نقل السلطة المطلقة من إسماعيل وتوزيعها على وزارة مسئولة يتحكم وزير المالية البريطانى بها في مجريات الأحداث لخلق حالة نزاع بين الخديوى والوزارة مما يتيح الفرصة لاحتلال مصر.

ومن جانبهم قاد دعاة الحركة الوطنية النهضوية وعلى رأسهم الأفغانى وتلاميذه من المدنيين والعسكريين أشرس هجمة دعائية على تلك الوزارة الأوربية فى كل مقالاتهم

(٣٣) د. مصطفى محمد رمضان: النظارات والوزارات، الجزء الأول، دار الكتب المصرية،القاهرة،١٩٦٩،ص٧٥.

(٣٤) د.مصطفى محمد رمضان : النظارات والوزارات ، ص٧٦.

التى لاقت انتشارا واسعا بين صفوف الشعب المصرى، ففى جريدة التجارة انتقدوا رفض وزير المالية حضوره للمسائلة بمجلس شورى النواب للاطلاع على مطالب النواب بالمجلس وطالب النواب بالذهاب إليه في مكتبه بوزارة المالية، الأمر الذى لا يعنى إلا أنه لا يعرى أى اهتمام للبرلمان المصرى ولا برتوكوله كونه على النسق البريطانى(٣٥)، فقد طالب البرلمانيون من كوادر الحركة الوطنية بزعامة "عبدالسلام المليجى" البرلمان المصرى(بمجلس شورى النواب) وزير المالية البريطانى بالمثول أمامهم بالمجلس ليس بهدف مسائلته عن أساب فداحة تلك الضرائب على الشعب كونها لا تندرج تحت أى قانون ولا تضبطها أى لوائح في ذلك الوقت وإنما لتخفيف ثقل تلك الضرائب من على كاهل الشعب المصرى بناء على تقديم المصريون شكوى تؤكد تضررهم من الضرائب الفادحة التى فرضت عليهم إلى مجلس الوزراء ومجلس شورى النواب لتخفيفها وإلغاء بعضها(٣٦).

ثم أن الخديوى إسماعيل وضع نفسه في موقف لا يحسد عليه بعد وضوح الأيديولوجية البريطانية من فتح باب إقراضه على مصراعيه لاحتلالها مصر كان قد انحياز إلى الرأى العام المصرى للتخلص من القيود رغبة بريطانيا فى عزله، فرحب بمناقشة ملف الضرائب بمجلس شورى النواب وأقر توصية المجلس بتخفيفها وإلغاء بعضها ووضع قوانين رسمية لفرضها بصورة تراعى البعد الاجتماعى المصرى(٣٧)، مما يؤكد أن الحركة الوطنية حققت قفزة حقيقية في طريق النهضة الدستورية والتى أتت بمردودها على الرأى العام المصرى

(٣٥) جريدة التجارة : بتاريخ ١١فبراير ١٨٧٩م.

(٣٦) جريدة التجارة : بتاريخ ١٣فبراير ١٨٧٩م.

(٣٧) د.مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية، ص٢٣٨.

اقتصاديا واجتماعياً باعتباره ثورة على نظام الضرائب المصرى الجائر على الشعب المصرى وخاصة الفلاحين.

وعندما أصدر الخديوى إسماعيل مرسوما في٦ يناير ١٨٧٩م بشأن اعتبار القوانين المالية ملزِمة بمجرد التصديق عليها من مجلس الوزراء والخديوى دون الأخذ في الاعتبار عرضها على مجلس شورى النواب تقدم عبدالسلام المليجى والوطنيين من أعضاء المجلس بمذكرة احتجاج رسمية عليه لرئيس المجلس وطالبوا بإلغاء المرسوم باعتباره إجحاف بحقوق مجلس شورى النواب الأصيلة في تشريع القوانين العامة للدولة مؤكدين في وجوب امتثال نوبار رئيس الوزراء للمسائلة في هذا الشأن(٣٨)،وقد تلقى الرأى العام المصرى هذه الأنباء بفرحة وحماسة منقطعة النظير، فتلك جريدة التجارة تحث على ضرورة الحذو حذو كوادر الحركة الوطنية بمجلس شورى النواب في أمر التصدى لمسالك وزارة نوبار الأوربية والخديوى الذى يأتمر بأمرها(٣٩).

ومن الملاحظ أن الحركة الوطنية المصرية في عهد إسماعيل والتى عرفت بالمعارضة الفاعلة سواء داخل الجيش أو الصحافة أو في صفوف الرأى العام أو بمجلس شورى النواب ضد مسالك وزارة نوبار قد تصدت لها وزارة نوبار من خلال غلقها الصحف الوطنية المعارضة كالتجارة والوطن ومصر واتهمتها بإثارة وخلق حالة من الفوضى في البلاد(٤٠) ، وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن نوبار كان أرمينى الأصل بالإضافة إلى كونه بميوله للأيديولوجية البريطانية الهادفة لاحتلال مصر سعى ليس فقط لبسط السيطرة

(٣٨) محاضر جلسات مجلس شورى النواب: دفتر رقم ٣٠٧، محاضر جلسات العام١٨٧٩م، محضر جلسة السبت١٠من صفر ١٢٩٦هجرية.

(٣٩) جريدة التجارة، بتاريخ ٣فبراير١٨٧٩م.

(٤٠) مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية،ص٢٤٠.

البريطانية على مصر بل وحرض البريطانيين على فرض الحماية عليها مؤكداً ترحيب إسماعيل إذا ما أعادت بريطانيا له أملاكه التى صادرتها[٤١].

ومن جانبها تحركت بريطانيا بخطى ثابتة نحو احتلال مصر من خلال تضاعف عدد الموظفين البريطانيين بالمصالح الحكومية بوزارة نوبار وحرصت على حصولهم على رواتب مالية ضخمة مما تسبب في عدم قدرة الدولة على تسديد ديونها بصورة منتظمة وإهمال مشروعات مصر القومية الاقتصادية الإصلاحية[٤٢]، وعندما ناقشت الصحف الوطنية تلك المسالك البريطانية لإسقاط الاقتصاد المصرى المتهاوى بالفعل بغية السيطرة عليه استاء الشعب المصرى بجميع طوائفه بقيادة الضباط المصريين بالجيش من حكومة نوبار الموالية وبوضوح للسياسة والأيديولوجية البريطانية تجاه مصر وطالبوا بإقالة نوبار وخاصة بعد قراره في أول فبراير من العام ١٨٧٩تسريح ألفان وخمسمائة ضابط مصري بالجيش بحجة تخفيف الأعباء المالية على الدولة ليتسنى لها تسديد ديونها بالرغم من أنهم لم يتقاضوا رواتبهم منذ عشرين شهرا مضت، وقد تحول هذا الاستياء إلى مظاهرة شعبية غاضبة بقيادة كوادر الحركة الوطنية من الجيش والبرلمان والصحفيين وعلماء الأزهر أمام وزارة الحربية في١٨من نفس الشهر، ووصل الأمر إلى أن اعتدى المتظاهرون على نوبار ووزير المالية البريطانى أثناء خروجهما من الوزارة بالضرب المبرح وحبسوهما في وزارة المالية الملاصقة لوزارة الحربية [٤٣].

(٤١) د. عبدالعزيز الشناوى: حادث جريدة الدستور، المجلة التاريخية، العدد١٠، عام١٩٦٢، القاهرة،ص١٦٤.

(٤٢) عبدالرحمن الرافعى: الزعيم أحمد عرابى، الطبعة الثالثة،دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٦،ص٢٨.

(٤٣) مصطفى محمد رمضان: نفسه،ص٢٤٣.

ومن ناحيته استغل الخديوى إسماعيل تلك الوقائع لصالحه فخرج بنفسه ويهدئ غضب المتظاهرين أمام وزارة الحربية ووعدهم باستصدار مرسوم بإقالة نوبار وحل مجلس الوزراء وإعادة الضباط الذين تم تسريحهم إلى مناصبهم ودفع رواتبهم المتأخرة، كما استطاع إخراج نوبار ووزير المالية البريطانى من محبسهما وعاد المتظاهرون إلى حيث جاءوا، وبذلك تخلص إسماعيل من وزارة نوبار وعقد قرضاً جديداً بحجة دفع رواتب الضباط والجند بالجيش ورفض الرضوخ للمطالب البريطانية بمعاقبة المتظاهرين من البرلمانيين والعسكريين والصحفيين(٤٤) .

أما الحكومة البريطانية فقد عقد العزم وبإصرار على عزل إسماعيل تماماً عن حكم مصر وتولية ابنه توفيق لتيقنها من ضعف شخصية توفيق مقارنة بأبيه الذى امتاز بالجرأة في اتخاذ القرار، وعندما اتضح لدى إسماعيل يقيناً بعمل بريطانيا لدى السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى ومطالبتها الأخير بإصدار فرمان بعزل إسماعيل عن حكم مصر لجأ للحركة الوطنية وكوادرها من البرلمانيين والإعلاميين والعسكريين للتخلص من السيطرة البريطانية على حكمه، فأسند تشكيل الوزارة الجديدة رسمياً إلى محمد شريف المعروف بميوله لإقامة حياة دستورية بمصر والمحبوب لدى كوادر الحركة الوطنية، وفي٧أبريل١٨٧٩تشكلت وزارة شريف المعروفة بوزارة الشعب(٤٥).

والجدير بالذكر أن وزارة محمد شريف أعدت دستوراً حقيقياً للبلاد ووضعت خطة عملية لتسديد الديون فور توليها مهام حكمها(٤٦)، مما يوحى بنجاح إسماعيل فى الالتفاف

(٤٤) جريد الأهرام : بتاريخ ١٩مارس١٨٧٩م .وأيضاً: مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية،ص٢٤٣.

(٤٥) جريد الأهرام : بتاريخ ١٩أبريل١٨٧٩م.

(٤٦) مصطفى محمد رمضان: نفسه،ص٧٥،ص٢٥٢.

على التحركات البريطانية الجادة لعزله عن حكم مصر إلا أن الحكومة البريطانية لم تكن لتسمح لإسماعيل بالإفلات منها ففى٢٦يونيو من نفس العام وقبل أن يعتمد إسماعيل للائحة الأساسية (دستور البلاد) واللائحة الانتخابية البرلمانية للدورة البرلمانية الجديدة التى تقدمت بهما حكومة شريف استصدرت الحكومة البريطانية فرماناً من السلطان عبدالحميد الثانى بعزل إسماعيل عن حكم مصر وتولية ابنه توفيق، وكان توفيق يميل إلى مجالسة الأفغانى ليتلقى منه كيفية إدارة البلاد والنهضة بها فى كافة المجالات وعدم الرضوخ للمحتل الأجنبى لذلك نجد أن كوادر الحركة الوطنية استبشروا بتولى توفيق حكم البلاد خيراً، إلا أنه رضخ للضغوط البريطانية القائمة عليه فنجده يرفض اللائحتين الأساسية والانتخابية البرلمانية التين تقدمت بهما حكومة محمد شريف منذ٦ يوليو من نفس العام بل وأسقط وزارة شريف تماماً وحل البرلمان المصرى وبذلك قضى على الحركة الدستورية الوليدة(٤٧).

بريطانيا والقضاء على الحركة الوطنية برمتها ١٨٧٩-١٨٨٣م

كانت حكومة لندن على يقين بأن المنبع الرئيسى لتلك الحركة الوطنية النهضوية بمصر هو جمال الدين الأفغانى الذى لطالما طاردته في الهند وتركيا فمصر وذلك لتأثيره ودعوته الحماسية المناهضة للأيديولوجية البريطانية الهادفة إلى السيطرة على مقدرات الشعوب والأوطان ولو بالقوة المسلحة(*)، وإذا ما نظرنا إلى الحركة الوطنية الناشئة بمصر

(٤٧) محاضر جلسات مجلس شورى النواب للعام١٨٧٩ميلادية : دفتر رقم ٣٠٧، محضر جلسة١٦رجب١٢٩٦هجرية.

(*) فقد كان جمال الدين الأفغانى مفكراً نهضوياً يجوب بلاد الإسلام من أدناها إلى أقصاها ففى الهند المحتلة من بريطانيا ثم إيران ثم تركيا ومنها إلى مصر كان دائم الدعوة إلى وجوب التخلص من التدخل البريطانى في شئون تلك البلاد الداخلية والقضاء على دسائسها لإثارة الفتن بوحدة المسلمين تحت راية الخلافة الإسلامية بتركيا (الدولة العثمانية)كخطوة أولى لنهضة البلاد.انظر: د. محمد حسين الهيدوس:تاريخ العرب

آنذاك فنجدها كانت قد انقسم كوادرها إلى ثلاث اتجاهات: أولها الاتجاه الإسلامى بزعامة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وطالبوا بوحدة المسلمين تحت راية الدولة العثمانية بإعادة قوة الدولة الإسلامية لتقود العالم في كل المجالات ولمقاومة الاحتلال البريطانى وأيديولوجيتها التى تهدف إلى السيطرة الكاملة على الاقتصاد المصرى بموارده الطبيعية والبشرية وجعل مصر سوقاً للمنتجات البريطانية وبسط نفوذها الكامل على ممر قناة السويس الاستراتيجى للملاحة البريطانية ف٧٠٪من تجارتها الخارجية تمر به(٤٨)، ونلاحظ أن هذا الاتجاه قوى بوجود الأفغانى في مصر وضعف مع نجاح بريطانيا في احتلال مصر عام ١٨٨٢م بعد أن نفى الأفغانى وتبعه محمد عبده خارج مصر فور احتلال بريطانيا لمصر .

أما الاتجاه الثانى فهو الاتجاه الدستورى والذى كان بزعامة "محمد شريف" رئيس مجلس الوزارء السابق آنذاك و"عبدالسلام المليجى" زعيم المعارضة بمجلس شورى النواب و"إسماعيل راغب" معارض بمجلس شورى النواب والذين طالبوا بوضع دستور يفصل بين سلطات الدولة الثلاث (التنفيذية والتشريعية والقضائية)والقضاء على الحكم المطلق الذى أعاده توفيق فور توليه الحكم وحكم البلاد حكماً دستورياً ، واعتبروا ذلك وسيلتهم الوحيدة

الحديث، دار الكتاب العربى، القاهرة، ٢٠٠١،ص٣٠٨. فحرضت الحكومة البريطانية على قتله في الهند إلا أنها فشلت بعد هروبه إلى إيران ومع ذلك حرضت حاكم إيران (الشاه ناصر الدين)على اعتقاله فهرب إلى تركيا فحرضت السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى على طرده منها فلجأ إلى مصر منذ العام ١٨٧١واستمر بها حتى١٨٧٩م. انظر: عبدالمتعال الصعيدى: المجددون في الإسلام، مكتبة الآداب، القاهرة،١٩٩٦،ص٣٧٢. وأيضا: د.عمر عبدالعزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٠،ص٢٩٨.

(٤٨) عبدالمتعال الصعيدى : مرجع سابق،ص٣٦٢.

للتخلص من التدخل البريطانى في شئون مصر الداخلية(٤٩). أما الاتجاه الثالث وهو الثورى بزعامة "أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى" الضابطان بالجيش المصرى وغيرهم من علماء الأزهر الثورين أمثال "عبدالله النديم" واعتبروا أن التخلص من التدخل البريطانى في شئون مصر الداخلية لن ينتهى إلا بالثورة المسلحة على نظام حكم أسرة محمد على ومحاربة الفساد والإتيان بنظام حكم مصرى(٥٠).

والجديد بالذكر أن محمد شريف وفور تقديم استقالته من رئاسة مجلس الوزراء في٨ يوليو من نفس العام نجد الخديوى توفيق يعلن عن تشكيل وزارة برئاسته في نفس اليوم وحل مجلس شورى النواب دون الإعلان عن تحديد موعد لانتخابات الدورة الجديدة من المجلس، وجاءت تلك المسالك من الخديوى توفيق بناءً على تحريض بريطاني واضح لضمان تحويل أيديولوجيتها إلى واقع ملموس باحتلالها العسكرى لمصر وخاصة بعد أن اتضح جلياً أن اكتسب الاتجاه الثورى وأنصاره تأييد الرأى العام المصرى بعد نجاح توفيق في إضعاف الاتجاهين الإسلامى والدستورى من خلال طرد جمال الدين الأفغانى زعيم الاتجاه الإسلامى من مصر فى ٢٨أغسطس١٨٧٩تحريض بريطانى بعد اتصال الأفغانى وكوادر الدستوريون بنظرائهم من ضباط الجيش الثوريين وعلى رأسهم أحمد عرابى لاتخاذ موقف حازم ضد مسالك الخديوى(٥١)، وقضائه على تلك الحركة الدستورية الناشئة وتنكره للحركة الوطنية للنهوض بمصر ورضوخه لسياسة بريطانيا تجاه مصر فتم طرد الأفغانى من مصر بأمر شخصى من توفيق تلبية لمطالب الحكومة البريطانية،

(٤٩) جريدة الوقائع المصرية، بتاريخ ٣١أغسطس١٨٩٧م وأيضا: د.مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية، ص٢٦١ وأيضا: د.عمر عبدالعزيز: مرجع سابق، ص٢٩٩.

(٥٠) جريدة الوقائع المصرية، بتاريخ ٣١ أغسطس ١٨٧٩م.

(٥١) جريدة الوقائع المصرية، بتاريخ ٣١ أغسطس ١٨٧٩م وأيضاً: د.مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية، ص٢٦١.

وأحد أهم أسباب غضب الرأى العام المصرى عامة وكوادر الحركة الوطنية باتجاهاتها الثلاثة بصفة خاصة والثوريين بصفة أخص وعلى رأسهم أحمد عرابى، الأمر الذى وحد كافة الاتجاهات تحت راية حزب سياسى واحد اطلقوا عليه اسم "الحزب الوطنى" فى نوفمبر ١٨٧٩م بمدينة حلوان قرب القاهرة لبعدها عن عيون السلطة (٥٢).

وكانت دوائر صنع القرار البريطاني قلقة خوفاً من فشل مخططاتها الرامية لاحتلال مصر بعد وحدة كوادر الاتجاهات الوطنية الثلاث تحت راية الحزب الوطنى بزعامة أحمد عرابى لذلك نجدها تصدر تعليماتها للخديوى توفيق بتعيين "دوفلين كروم Dovlen)" (Kromer رقيباً على الإيرادات و"دى بلبير (Dyblear)"رقيباً على المصروفات وتوظيف ١٢٢٥موظف بريطاني بالمناصب الإدارية العليا بالمصالح الحكومية بحكومة مصطفى رياض الموالية للسياسة البريطانية تجاه مصر، وبذلك يكون قد وصل عدد الموظفين الأوربيين بالحكومة المصرية ٩٢٠٠أغلبهم بريطانيين بغرض إحداث خلل فى إدارة الدولة وتشويه سمعة الحكومة أمام الشعب المصرى بقضاء المصالح من خلال الرشوة والمحسوبية والقضاء على أى إصلاح إدارى أو تشريعى من شأنه أن يساهم فى سداد الديون المصرية وانعاش نظام الاقتصاد المصرى (٥٣).

وقد أدى التدخل البريطانى فى شئون مصر الداخلية على هذا النحو إلى سخط الرأى العام المصرى عامة وكوادر الحركة الوطنية بصفة خاصة، كما أن "عثمان رفقى" وزير الحربية التركى والمعروف ببغضه الشديد للضباط المصريين بالجيش بنفس وزارة مصطفى رياض يتعمد اضطهاد الضباط المصريين وخاصة الثوريين منهم ففى

(٥٢) د.مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية، ص٢٦٢.

(٥٣) تيودور روتستين: تاريخ المسألة المصرية(ترجمة: محمد بدران وآخرين)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦،ص٥٩.

يناير ١٨٨١م نقلهم إلى مناطق متفرقة بصعيد مصر لتشتيت شملهم ، فرفض كوادر الحركة الوطنية بالجيش المصرى تنفيذ تلك الأوامر وتقدموا برئاسة أحمد عرابى بمذكرة لمصطفى رياض مطالبين فيها بإقالة عثمان رفقى وتشكيل مجلس شورى النواب وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندى بناء على اتفاقية لندن منذ العام١٨٤٠م(٥٤)، تلك الاتفاقية التى تُعَد بداية التدخل البريطانى فى شئون مصر الداخلية(٥٥)، كما طالب عرابى وكوادر الحركة الوطنية بالجيش بتعديد قوانين الجيش بما يضمن مساوات الضباط المصريين بنظرائهم من الأتراك فى الدرجات الإدارية والمالية(٥٦) .

وما أن وصلت هذه المذكرة إلى عثمان رفقى من خلال رئيس مجلس الوزراء مصطفى رياض أثناء تواجده بمقر الحكومة بقصر النيل حتى قام عثمان رفقى بحبس عرابى والبارودى وعبدالعال حلمى بسجن قصر النيل فى يناير ١٨٨١م فخرج الضباط والجنود المصريين بالجيش عن بكرة أبيهم واتجهوا فى مظاهرة مسلحة هى الأولى من نوعها فى تاريخ مصر الحديث واتجهوا نحو قصر النيل وانضم إليهم الكثير من فئات الشعب المصرى الساخط على كثرة الضرائب وغلاء الأسعار، وما أن وصلوا أمام قصر النيل دخل بعض الضباط الغاضبين وأخرجوا عرابى ومرافقيه بالقوة طالبوا توفيق المتواجد فى المشهد لتهدئتهم بإقالة عثمانى رفقى وتعيين محمود سامى البارودى وزيرا للحربية فوافق، ومنذ تلك اللحظة أصبح عرابى زعيم الحركة الوطنية بلا منازع، فأصرت الحكومة البريطانية وتوفيق ورئيس حكومته رياض على التخلص من عرابى والحركة الوطنية

(٥٤) مذكرات أحمد عرابى(كشف الستار عن الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية)، مطبعة مصر، القاهرة،د.ت،ص٢١٩، ص٢٣٧.

(٥٥) محمد رفعت: تاريخ مصر السياسى، الجزء الأول، مطبعة مصر، القاهرة، د.ت، ص٢٤٦.

(٥٦) مذكرات أحمد عرابى،ص١٣٤.

برمتها فى الجيش فأجبروا البارودى على الموافقة على إرسال فرقة عرابى بالجيش إلى الاسكندرية وفرقة عبدالعال حلمى إلى دمياط إلا أن البارودى رفض، ففى ٨سبتمبر ١٨٨١فأُجبر على تقديم استقالته وتولى رياض الوزارة وأبعد الفرقتين فبالفعل خرجتا ومعهما الجيش المصرى برمته مسلحاً فى نفس اليوم ولكن إلى قصر عابدين مقر حكم توفيق فى مظاهرة عابدين الشهيرة لتقديم مطالبهم علانية بإسقاط حكومة رياض وتأليف حكومة شريف وإعادة الحياة النيابية ووضع دستور للبلاد وزيادة عدد الجيش إلى١٨ألف فاضطر توفيق إلى قبول تلك المطالب(٥٧).

وعلى الرغم من تلك الإنجازات التى حققها كوادر الحركة الوطنية إلا أن الدستوريين بزعامة محمد شريف والإسلاميين بزعامة محمد عبده كانوا قلقين من تدخل عرابى والعسكريين فى الحياة النيابية والحكومة الوطنية المتوقع تشكيلها برئاسة شريف، لذلك رفض شريف رسميا تشكيل تلك الحكومة إلا بعد إعلان عرابى والعسكريين عدم التدخل فى الحياة النيابية والحكومة بل وخضوعهم لأوامر الدستور وحكومة شريف، وبعد موافقة عرابى والعسكريين قدم شريف الدستور واللائحة الانتخابية إلى توفيق فى ٢٣سبتمبر ١٨٨١ فاعتمدها توفيق فى ٤أكتوبرمن نفس العام(٥٨).

لم تقف الحكومة البريطانية مكتوفة الأيدى تجاه تلك التطورات السريعة التى أحدثتها الحركة الوطنية بمصر والتى من شأنها أن تقضى على مساعى بريطانيا لاحتلال مصر ففى ٧يناير ١٨٨٢توجه القنصل البريطانى فى مصر بصحبته نظيره الفرنسى إلى الخديوى بمذكرة مشتركة من وزيرى خارجيتهما أعنتا فيها تأييدهما التام لسياسة الخديوى الداخلية

(٥٧) مذكرات أحمد عرابى،ص١٣٤ ،ص٢٧٢. وأيضا: تيودور روتستين: مرجع سابق،ص١٢٧.
(٥٨) مذكرات أحمد عرابى،ص١٣٤ ،ص٢٧٢.وأيضا: عبدالرحمن الرافعى: الزعيم أحمد عرابى، ص٤٣.

فى حكم مصر وتحريضهما له على السعى لإعادة حكمه المطلق لمصر والتخلص من الحكم الدستورى[٥٩]، بينما تلقى الرأى العام المصرى عامة وكوادر الحركة الوطنية خاصة تلك المذكرة بغضب حاد وطالب أعضاء مجلس شورى النواب من الثوريين بمناقشة الميزانية المصرية رداً على تلك المذكرة المشتركة وتحدثت الصحف الوطنية عن ضرورة مناقشة الميزانية بينما حذر كوادر الحركة الوطنية من المعتدلين سواء الإسلاميين بزعامة محمد عبده عضو البرلمان أو الدستوريين بزعامة محمد شريف رئيس مجلس الوزراء آنذاك من مناقشة الميزانية لأن ذلك من شأنه أن يعطى بريطانيا الذريعة لاحتلال مصر، ووصل الأمر إلى حد استقالة شريف[٦٠]،فأسندت الوزارة إلى محمود سامى البارودى الذى أعلن تشكيلها فى ٣فبراير ١٨٨٢م والتى عرفت بوزارة الثورة وكان عرابى وزير الحربية بها[٦١]،وبذلك نستطيع القول أن الثوريين من كوادر الحركة الوطنية سيطروا على النظام العسكرى والسياسى بمصر.

استغلت الحكومة البريطانية تلك الأحداث لتحويل أيديولوجيتها تجاه مصر إلى واقع ملموس، فنجدها تعلن للرأى العام العالمى وتؤكد للسلطان العثمانى عبدالحميد الثانى والخديوى توفيق رفضها لوزارة البارودى واعتبرتها انقلاب عسكرى على نظام حكم توفيق برغم إرسال البارودى بمذكرة رسمية للحكومة البريطانية التزم ووزارته بتسديد ديون مصر وحفاظها على الرعايا والموظفين البريطانيين والأوربيين بمصر[٦٢]، فدفعت بريطانيا

(٥٩) تيودور روتستين: نفسه، ص١٤٣،ص١٥٠.وأيضاً:عبدالرحمن الرافعى: الزعيم أحمد عرابى، ص٦٣.وأيضاً: د.مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية، ص٢٨٦.

(٦٠) تيودور روتستين: نفسه، ص١٥١.وأيضاً:عبدالرحمن الرافعى: الزعيم أحمد عرابى، ص٦٥.وأيضاً: د.مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية، ص٢٨٦.

(٦١) جريدة الوقائع المصرية، بتاريخ ٥فبراير ١٨٨٢م.

(٦٢) جريدة الوقائع المصرية، بتاريخ ٩فبراير ١٨٨٢م.وأيضاً: تيودور روتستين: مرجع سابق،ص١٦٥.

ب١٣٢٥موظف بريطانى جدد لشغل الوظائف القيادية بالمصالح الحكومية المصرية لاختلاس أموال الدولة ونشر الفساد الإدارى في ربوعها، وعندما أعلن عن مناقشة الميزانية في مارس١٨٨٢م أرسلت بريطانية مالا يقل عن ٤٠سفينة حربية مسلحة قبالة شواطئ الإسكندرية كما أرسلت الخارجية البريطانية ونظيرتها الفرنسية مع قنصليهما بمصر المذكرة المشتركة الأولى أكدتا فيه احتجاجهما على النظام الدستورى المصرى برمته ومسالك وزارة البارودى وإعطاء البرلمان حق مناقشة الميزانية مما أدى إلى استقالة رقيبى بريطانيا على الإيرادات والمصروفات (٦٣).

ومن الملاحظ أن الحكومة البريطانية لم ترغب في إقحام نظيرتها الفرنسية نفسها ليكون لها نصيب في احتلال مصر، فنجد حكومة لندن تضع الخطة تلو الأخرى لاحتلال مصر منفردة ففى أبريل من نفس العام حاكت مع الضباط الشراكسة بالجيش المصرى مؤامرة لاغتيال أحمد عرابى والبارودى، وعندما قبض عليهم وأصدر عرابى قراره بنفيهم إلى السودان رفض توفيق اعتماد القرار بتحريض من القنصل البريطانى الذى أكد على تعهد حكومته بحماية توفيق من بطش الثوريين العسكريين، الأمر الذى أحدث توتراً بين توفيق ووزارة البارودى ، وفى ٢٥مايو من نفس العام وتزامناً مع تواجد ٤٠سفينة مسلحة من الأسطول البريطانى وأربعة سفن حربية فرنسية قبالة شواطئ الاسكندرية أرسلت خارجيتى بريطانيا وفرنسا مع قنصليهما بمذكرتهما المشتركة الثانية إلى توفيق طالباتاه بإقالة وزارة البارودى ونفى عرابى عن مصر فقبلها توفيق، مما أدى إلى تقديم البارودى استقالته احتجاجاً على قبول توفيق لتلك المذكرة فقبلها توفيق على الفور وأسند الوزارة إلى شريف فرفضها ولم يجرؤ أحد على قبولها في ظل سخط الرأى العام المصرى فترأس

(٦٣) تيودور روتستين: مرجع سابق،ص١٦٦.

توفيق الوزارة بنفسه وأسند وزارة الحربية لعرابى الذى قبلها[٦٤]، وعلى الرغم من إرسال السلطان العثمانى"عبدالحميد الثانى"وفداً للتحقيق في الخلاف بين البارودى وتوفيق إلا أن رؤية الأسطول الحربى البريطانى قبالة الاسكندرية كان كفيلاً بتيقن عبدالحميد الثانى من إصرار بريطانيا على احتلال مصر وأن حضور وفده لمصر لن يثنى بريطانيا عن احتلال لمصر[٦٥].

أوشكت بريطانيا على تحويل أيديولوجيتها الهادفة لاحتلال مصر إلى واقع ملموس فهى تسير بخطى ثابتة ومدروسة في ظل مسالك الثوريين العسكريين زعماء الحركة الوطنية الجدد وعلى رأسهم عرابى غير المدروسة، فعلى أرض الإسكندرية حاك القنصل البريطانى مؤامرة لإحداث مذبحة في حق الرعايا الأوربيين تتيح للأسطول البريطانى احتلال مصر بحجة حماية هؤلاء الرعايا، وبالفعل وفى ١١يونيومن نفس العام وزع القنصل البريطانى السلاح على الأوربيين وتم اختلاق معركة بدأت باعتداء أوربى من جزيرة مالطا يعمل خادماً لدى القنصل بالإسكندرية على أحد الأهالى وقتله فاشتعلت مذبحة الإسكندرية التى راح ضحيتها ١٦٣مصرياًو٧٥أوربياً فطلب القنصل من حاكم الإسكندرية"عمر لطفى" الموافقة رسمياً على نزول الجنود الإنجليز لحماية الرعايا الأوربيين والمدنيين لعجز

(٦٤) محمد رشيد رضا:مرجع سابق، ص٢٤٢. وأيضاً: د.مصطفى محمد رمضان: تاريخ الحركة الوطنية، ص٢٩٤.

(٦٥)عبدالرحمن الرافعى: الزعيم أحمد عرابى، ص٨١.وأيضاً: عمر فاروق يلماز:السلطان عبدالحميد خان الثانى بالوثائق(ترجمة:طارق عبدالجليل السيد)،دار نشر عثمانى،استانبول،د.ت،ص١٣٣. وأيضاً: د.أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الأسلامى والحضارة: الجزء الخامس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،١٩٨٢،ص٧٦١.

عرابى والجيش المصرى عن حمايتهم فواق على الفورمما يؤكد تواطؤه مع الإنجليز ناهيك عن تقاعسه في فض الاشتباك ووقف المذبحة رغم قدرته على ذلك(٦٦).

وفور نزول جنود الأسطول البريطانى أرض الاسكندرية غادر الرعايا الأوربيين مصر خوفاً من تنكيل الشعب المصرى بهم انتقاماً من بدء احتلال الجيش البريطانى لمصر(٦٧) ،وفى ٣يوليو١٨٨٢ وفور احتلال القوات البريطانية للإسكندرية حول توفيق محل إقامته من القاهرة إلى الاسكندرية بحجة تهدئة الأوضاع بينما كان ينفذ تعليمات "سيمور Semoor" قائد الأسطول البريطاني بالاسكندرية الذى أكد له أنه سخلص توفيق من العرابيين وأتباعهم (كوادر الحركة الوطنية باتجاهاتها الثلاث)(٦٨)، بينما تيقنت فرنسا من احتلال بريطانيا لمصر منفردة واعتبرته خيانة لعهدها معها باحتلال مشترك دعت فرنسا فعقدت مؤتمرا دوليا لمنع بريطانيا من تفعيل احتلالها لمصر فى٢٣يوليو من نفس العام بحجة بحث المسألة المصرية في الأستانة وبحضور كل من بريطانيا وألمانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وتخلفت عنه الدولة العثمانية رغم أنها المضيفة له وأكد البيان الختامى له في ٢٥يوليو على وجوب عدم احتلال أى دولة لمصر إلا في حالة الضرورة القصوى(٦٩).

(66) F.O,407/184,Letter,fromAllanby to Curzon,June15,1919.

وأيضاً:عبدالرحمن الرافعى: الزعيم أحمد عرابى،ص٨٤.وأيضاً:عبدالرحمن الرافعى:الثورة العرابية،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، د.ت،ص٢٢٥.

(67) F.O,Ibid.

(٦٨) مذكرات أحمد عرابى ، ص ١٨٦ . وأيضاً: مذكرات محمد عبده: مطبوعات الهلال،القاهرة، د.ت، ص١٩٣.

(٦٩) عبدالرحمن الرافعى: الزعيم أحمد عرابى،ص٩٣.

و قد بدأت بريطانيا احتلال أرض مصر فعلياً[٧٠] بعد أن استطاع سيمور انتهاز فرصة ترميم الجيش المصرى لحصونه بالإسكندرية معلناً أنها استعداد للهجوم العسكرى على قواته واعتبرها حالة الضرورة القصوى التى أصر ممثل بريطانيا فى المؤتمر على إدراجها بالبيان الختامى للمؤتمر تنفيذاً لخطة دوائر صنع القرار البريطانى لاحتلال مصر، وقد كان سيمور قد هدد باحتلال الاسكندرية فى ١٠يوليو ولم يكد يمر يوم حتى احتلها فعلياً(٧١)،وعلى الرغم من محاولات الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى المستميتة لصد العدوان والتى استمرت أكثر من ثلاثة أشهر إلا أنه فشل وانهارت الروح المعنوية للجيش المصرى خاصة بعد إعلان السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى بتحريض من الخديوى توفيق الذى ارتمى في أحضان المحتل البريطانى بأن عرابى وجيشه متمرداً على سلطان الدولة العثمانية والخديوى توفيق[٧٢]) فأعلن الجيش وقائده استسلامه رسمياً والتهمت بريطانيا أرض مصر وما عليها بالخيانة(*)، وبذلك تحولت أيديولوجيتها إلى واقع ملموس، فقضت على كل رموز الحركة الوطنية باتجاهاتها الثلاثة وأصدر توفيق مرسوماً باعتقالهم والتحقيق معهم وتم الحكم على العسكريين وعلى رأسهم عرابى بالنفى إلى جزيرة سيلان ومصادرة أملاكهم ومحو أسمائهم من سجلات الجيش المصرى، كما حكم على المدنيين بالنفى خارج مصر فى مدد تتراوح بين عام إلى عشرين عاماً وعلى رأسهم محمد عبده

---

(٧٠) تيودور روتستين: مرجع سابق، ص١٦.

(71) F.O,407/184,Tell. No511,from Cairo to F.O,Apr6,1919.

(٧٢) ألفر ديبلنت: التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر(ترجمة:عبدالقادر حمزة) مكتبة الأنجلوالمصرية،القاهرة،د.ت، ص٢٨٧.

(*) لمعرفة تفاصيل المعارك التى دارت بين الجيش المصرى بقيادة عرابى ونظيره الانجليزى بقيادة سيمور وماتخللها من خيانة بدأت بحاكم الاسكندرية عمر لطفى مروراً بالخديوى توفيق ففرديناند ديليسبس رئيس قناة السويس الذى وافق على عبور الاسطول البريطانى للقناة والالتفاف على الجيش المصرى بعد تأكيد ديليسبس لعرابى مسبقاً على عدم السماح بمرور الاسطول البريطانى بناء على قوانين الممرات المائية العالمية انظر: ألفر ديبلنت: نفسه. وأيضاً: عبدالرحمن الرافعى: مرجع سابق،ص٤٠١، ص٤٢٨،ص٤٣٤،ص٤٦٤.

زعيم التيار الإسلامى بالحركة الوطنية والذى حكم عليه بالنفى لمدة ثلاثة أعوام(*)،وبذلك قضت بريطانيا على تلك الحركة الوطنية النهضوية بمصر والتى إن قُدِّر لها النجاح لأصبح لمصر مكانة مختلفة تماماً عما هى عليه.

وعلى أية حال فقد تيقنت بريطانيا من أن مصر أصبحت أرضاً خصبة يسهل السيطرة على مواردها الطبيعية والبشرية والتهام اقتصادها بأكمله، وقد كلفت مراقب بريطانيا السابق على الإيرادات المصرية "دوفلين كرومر" وهو أكثر سياسيها دهاءً ليحكم مصر بصفته المعتمد البريطانى لمصر بعد أن أصبح الخديوى توفيق وحكومته ألعوبة فى يديه، فنجده يحضر مصر فى أكتوبر ١٨٨٢م بعد ٤٥ يوماً من الاحتلال لإعداد تقريره للسيطرة الكاملة على مصر، وبعد ستة أشهر من بقائه فى مصر أعد تقريره الذى اعتبرته الحكومة البريطانية دستوراً لاحتلالها والذى أكد على كيفية القضاء على الحركة الوطنية ورموزها وضمان عدم تجددها على يد رموز جدد ومحو مكانة مصر الدولية بالتصرف فى شئونها الخارجية وإلغاء دستورها الناشئ وحل مجلس شورى النواب والقضاء على الحياة النيابية عامة والتحكم فى سياستها الداخلية وقراراتها الوزارية وإغلاق المدارس ودور التعليم واقتصاره على تخريج موظفين للعمل بالوظائف الصغيرة فى المصالح الحكومية تحت إمرة الموظفين البريطانيين ويدينون بالولاء لهم(٧٣).

(*) لمعرفة تفاصيل الأحكام الصادرة على كوادر الحركة الوطنية بمصر فور اكتمال الاحتلال البريطانى لمصر. انظر: جريد الوقائع المصرية : بتاريخ ٤-٩-١١-٢٤-٢٥-٢٦-٢٨ديسمبر ١٨٨٢م.

(73)F.O,407/183,Tel. No351, from Cairo to F.O,July31,1919.and: F.O,407/185,Tel. No566, from Cairo to F.O,Dec15,1919.and: F.O,407/187,Tel. No711, from Cairo to F.O,July12,1919.

وأيضاً: عبدالرحمن الرافعى: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، مطبعة الشعب، القاهرة،د.ت،ص٧١ .وأيضاً: شحاتة عيسى ابراهيم: مرجع سابق، ص٥٨.

لقد أدار "دوفلين " البلاد كونه الحاكم الفعلى لها فحل الجيش المصرى وسرح ضباطه ثم خفض عدده إلى ٦آلاف عسكرى تحت قيادة عسكرية بريطانية لها صلاحيات حله وتسريح جنوده كما تشاء، وبالفعل أصدر توفيق بأمر من دوفلين مرسوماً بذلك وأصبح "السير افلن رود SirElvenRod"قائد الجيش المصرى بموجب ذلك المرسوم وله حق التعيين والتسريح والتنظيم والتسليح كما يشاء، وبذلك تولى قيادات فرق وألوية الجيش ضباط بريطانيون كما صدر قانون البدل النقدى عن الخدمة العسكرية ومضمونه تقديم مبالغ مالية مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية وبذلك اقتصر الجيش على الفقراء الجاهلين بالحركة الوطنية وبالتالى حرمان الجيش من خدمات العناصر المثقفة القادرة على قيادة الحركة الوطنية الفاعلة عسكرياً وأصبح الجيش ضعيفاً لا يرقى لحد المقاومة فى أى حرب، كما أصدر توفيق مرسوماً بتعيين "السير فالتين بيكر Valten "Bekar مفتشاً عاماً للبوليس المصرى كما أطلقت عليه السلطات البريطانية(٧٤)،وبذلك سيطر كرومر كسلطة احتلال على مصر وأفرغها من أى مقاومة عسكرية سواء في الجيش أو الشرطة.

فى٤فبراير ١٨٨٣ قام كرومر بإجبار توفيق على إصدار مرسوم بتعيين "السير أوكلن كلفن Oclen Kelvin)"مستشاراً مالياً للحكومة المصرية وله الحق فى التدخل فى شئون مصر المالية والمتصرف الوحيد فى الميزانية، فأجبر كلفن الحكومة المصرية على تسديد نفقات احتلال بريطانيا العسكرى لمصر وتعويض الرعايا البريطانيين بالإسكندرية أثناء الحرب ومنح الموظفين البريطانيين وضباط الجيش البريطانيين رواتب ضخمة على

(74) F.O,407/186,Tel. No3, from F.O to Cairo,Jonu6,1920.and: R.No4,Jonu4,1920.and: Tel.153, from Cairo to F.O,Apr6,1919.and: A.D.M.l,8696/47,til.No225, from Admiralty to R.A.lst Cairo,June7,1928.

حساب الميزانية، وأغلق المصانع القومية وسخر الاقتصاد المصرى لخدمة اقتصاد بريطانيا وأهمل الزراعة باستثناء زراعة القطن الذى ينقل مباشرة إلى بريطانيا كمادة خام(٧٥) ،ففى مايو ١٨٨٣ قام كرومر بإجبار توفيق على إصدار مرسوما بحل مجلس شورى النواب وأنشأ مجلس شورى القوانين يعرض عليه مشروعات قوانين الحكومة وتقتصر صلاحياته على إبداء الرأى غير الملزم للحكومة والجمعية العمومية لمداولة المسائل ذات المصالح العامة لمصر ورأيها استشارى غير ملزم [٧٦].

أما التعليم فقد قضى عليه كرومر أيضاً وأغلق المدارس إلا القليل منها واستخدم اللغة الإنجليزية في الدراسة وجعل الالتحاق بها بمبالغ مالية باهظة وجعل الدراسة تقتصر على إخراج موظفين بالمصالح الحكومية فقط، وجعل عدد الطلاب الملتحقين بالمدارس العليا كالطب والمهندسخانة والحقوق قليل للغاية برغم إقدام القادرين على تسديد تلك المبالغ الضخمة للالتحاق بالدراسة، وأوقف البعثات العلمية لأوربا(٧٧)،كما أغلق المدارس الحربية والبحرية وباع الأسطول البحرى الذى يضم١٢سفينة حربية المصرية كقطع بالية لشركة"كودCod"الانجليزية بأبخس الأثمان[٧٨] وقضى على الصحافة وكل معارضة بسجنهم أو نفسهم خارج مصر، فكافأته الحكومة البريطانية ومنحته لقب اللورد كرومر وصفة المندوب السامى البريطانى لمصر فى نهاية مايو١٨٨٣م لنجاحه فى وأد أى

---

(75) F.O,407/186,R.No634, from Cairo to F.O, Dec17, 1919. وأيضاً: عبدالرحمن الرافعى: مصر والسودان،ص٧٢.

(76) F.O,407/187,Tel.No711, from Cairo to F.O, July12, 1920. وأيضاً: شحاته عيسى ابراهيم: مرجع سابق،ص٦٤.

(٧٧) أرشيف مجلس شورى القوانين:مضبطة جلسة٢٤ديسمبر١٨٩٤.

(78) F.O,407/188,Tel.No164, from Cairo to F.O, Mar8, 1921. وأيضاً: عبدالرحمن الرافعى: مصر والسودان،ص٥١.

حركة وطنية ومنع ولادتها وتحويل أيديولوجية بريطانيا تجاه مصر إلى واقع ملموس، وأصبح كرومر القوى الذى تضاءلت أمامه كل القوى وأولها الخديوى[٧٩] .

وهكذا تم وأد الحركة الوطنية المصرية التى نهضت منذ العام ١٨٧١م على يد المحتل البريطانى لتعارض أهداف تلك الحركة النهضوية مع الأيديولوجية البريطانية طوال فترة الدراسة . وقد توصلت من خلال دراستى لهذا الموضوع إلى عدة نتائج تحليلية أهمها :

- نشأت الحركة الوطنية بمصر على يد تلك الطبقة المثقفة من طلاب العلم المصريين العائدين من بعثات محمد على العلمية لأوروبا منذ١٨٤٠مما أدى إلى قيام نهضة فكرية مستنيرة دينيا وعلميا وأدبيا وسياسياً وظهرت بوضوح منذ العام ١٨٧٧م ثم انضم إليها الثوريين من ضباط الجيش لتكون مسالكهم حجة بريطانيا لاحتلال مصر وتحويل أيديولوجيتها لأمرواقع.
- تعتبر محاولات المصريين من الوطنيين المعتدلين سواء كانوا إسلاميين أو دستوريين بإصرار لإدخال مصر عصر النهضة في كافة المجالات وانصياع الخديوى إسماعيل لذلك الإصرار منذ العام ١٨٧٨م العامل الرئيسي في تخلص بريطانيا من إسماعيل تمهيدا للقضاء على تلك النهضة التى أحدثها كوادر الحركة الوطنية .
- أن الأيديولوجية البريطانية تجاه مصر والتى تمثلت في السيطرة على ثرواتها وممراتها المائية العالمية جعلتها تصر على احتلال مصر والقضاء على الحركة الوطنية الهادفة إلى قيام نهضة في كافة المجالات مع ضمان عدم قيام أى حركة وطنية أو محاولة للنهضة بالبلاد.

(٧٩) عبدالرحمن الرافعى: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال،ص١٧٦.وأيضاً: شحاتة عيسى ابراهيم: مرجع سابق، ص٧٤،ص٧٩.

- أن بريطانيا التى التهمت مصر في سبتمبر من العام ١٨٨٢ حرصت على القضاء على الحركة الوطنية بها ووأد أية حركة وطنية، واختارت اللورد كرومر ليكون الحاكم البريطانى لمصر وتنفيذ تلك المهمة على أكمل وجه .
- أن كرومر لم يكتفى بتنفيذ تلك المهمة بل قضى على قيام قوى وطنية بالتعليم والقوة الوطنية بالجيش والشرطة المصرية وحول الطبقة المثقفة إلى مجموعة منتفعين بالوظائف الحكومية تحت إمرة البريطانيين ونشر الفساد الإدارى والأخلاقى للدولة ، الأمر الذى نعانى منه حتى الآن وعلى الرغم من مرور حوالى١٥٠ عاماً على تنفيذه لتلك الخطة لوأد الحركة الوطنية المصرية.
- أن إفساح المجال للتعليم الهادف هو السبيل الوحيد لإخراج قوة وطنية تستطيع إقامة نهضة حقيقية بمصر في كافة المجالات وخاصة المجال الاقتصادي ومن ثم نستطيع القول أن الحركة الوطنية المصرية استطاعت التغلب على الأيديولوجيات الهادفة إلى استغلالها للسيطرة عليها اقتصادياً .

المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق

١. وثائق غير منشورة

أ- الديوان العالى بدفتر خانة الشهر العقاري المصرى :

- محفوظات المحكمة الشرعية سابقا والخاصة بالمحاكم المصرية في العصر العثماني ، سجل رقم ٢ ، مادة ٤٧٣، صحيفة ٣٠٠.

B – United Kingdom

- Foreign Office :

F.O - 407/183 - 407/184 - 407/185 - 407/186 - 407/187 - 407/188

- Admiralty Office A.D.M.I - 8696/47

٢ . وثائق منشورة

- **أرشيف مجلس الشعب المصري:** محاضر جلسات مجلس شورى النواب ، دفتر رقم ٢٩٢– دفتر رقم ٣٠٧،

ثانياً : المذكرات الشخصية

- **مذكرات أحمد عرابى(** كشف الستار عن الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية)، مطبعة مصر، القاهرة، د.ت.

- **مذكرات محمد أنور السادات** :دار الهلال للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٨٥.
- **مذكرات محمد عبده:** مطبوعات الهلال،القاهرة، د.ت .

ثالثاً : المراجع

- **أحمد أمين:** زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م.
- **أحمد شلبى:** موسوعة التاريخ الأسلامى والحضارة: الجزء الخامس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،١٩٨٢.
- **ألفر ديبلنت:** التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر(ترجمة:عبدالقادر حمزة) مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة،د.ت.
- **إلياس الأيوبى:** تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل ،جـ٢،مطبعة المجمع العلمى المصرى،القاهرة،١٩٢٢.
- **تيودور روتستين:**تاريخ المسألة المصرية(ترجمة: محمد بدران وآخرين)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،١٩٥٦.
- **رأفت الشيخ:** تاريخ العرب الحديث، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣.
- **شحاتة عيسى ابراهيم:**الكتاب الأسود للاستعمار البريطانى لمصر، النهضة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٥.
- **عبدالحليم عويس:** فقه التاريخ فى ضوء أزمة المسلمين الحضارية، مطابع الوفاء، مصر، ١٩٩٣.
- **عبدالرحمن الجبرتى:** عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المجلد الأول ،والثانى ، والثالث،والرابع، المطبعة العامرة، القاهرة،١٣٢٢هجرية.

- **عبدالرحمن الرافعى** : الثورة العرابية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، د.ت .
- ـــــــــــــ : الزعيم أحمد عرابى، الطبعة الثالثة، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩٦٦.
- ـــــــــــــ : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، مطبعة الشعب، القاهرة، د.ت.
- **عبدالعزيز الشـــناوى:** عمر مكرم بطل المقاومة الشـــعبية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- **عبدالمتعال الصعيدى:** المجددون في الإسلام، مكتبة الآداب، القاهرة،١٩٩٦.
- **عمر عبدالعزيز:** دراســات في تاريخ العرب الحديث والمعاصــر، دار النهضــة العربية، بيروت، ١٩٩٠.
- **عمر فاروق يلماز:**الســلطان عبدالحميد خان الثانى بالوثائق(ترجمة: طارق عبدالجليل السيد)، دار نشر عثمانى، استانبول، د.ت.
- **عمر محمد بكر:** إطلالة على تاريخ مصـــر الحديث، مطبعة الحرية، القاهرة، ١٩٩٦.
- **محمد حســين الهيدوس:** تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب العربى، القاهرة، ٢٠٠١.
- **محمد رشيد رضا:** تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده، الجزء الأول، مطبعة المنار، القاهرة، د.ت.
- **محمد رفعت:** تاريخ مصر السياسى، الجزء الأول، مطبعة مصر، القاهرة، د.ت.
- **محمد عمارة:** الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، دار الشـــروق للنشـــر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨.

- ـــــــــ : مسلمون ثوار، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨.
- ـــــــــ : جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- **محمد فريد أبوحديد:** زعيم مصـــر الأول الســـيد عمر مكرم، ســـلســـلة كتاب الهلال،عدد٥٧، القاهرة، ١٩٥١.
- **محمود كامل:** الإسلام والعروبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩.
- **مصـــطفى محمد رمضـــان:** النظـارات والوزارات، الجزء الأول، دار الكتـب المصرية،القاهرة، ١٩٦٩.
- ـــــــــ : تاريخ الحركة الوطنية وجذور النضال المصرى، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٥.
- **هالة مصطفى:** الإسـلام السياسـي في مصـر بين حركة الإصـلاح إلى جماعات العنف، ط٢،مركز المحروسة للبحوث والنشر، القاهرة، ١٩٩٩.

رابعاً : الصحف والدوريات

- **المجلة التاريخية**
- **جريد الأهرام**
- **جريدة التجارة**
- **جريدة الوقائع المصرية**
- **جريدة مصر**
- **مجلة المنار**

Egypt between the National Movement and the British Strategy (1871-1882): An Analytical study

Abstract:

This study tackles the issue of the manifestation of national renaissance and reformation thought in Egypt with the arrival of the reformer "Gamal Al-Din Al-Afghani" to it in March 1871 from Istanbul (now Istanbul), the capital of the Ottoman Empire. He was welcomed by Khedive Ismail, the ruler of Egypt and Sudan at the time, because of his desire to benefit from Al-Afghani's knowledge. This is because the Khedive Ismail wanted to establish a higher school for religious, scientific and literary reform, in addition to Al-Afghani's reputation for opposing European control over Egypt's wealth, which had become clear since 1876. Al-Afghani's inclination towards democratic rule and opposition to dictatorial rule did not worry Khedive Ismail due to his absolute rule of the country. On the other hand, Britain had taken firm and deliberate steps to occupy Egypt and to control its wealth, even by armed force. In order to get rid of the reformation movement in Egypt, Britain forced the Ottoman Sultan "Abdul Hamid II" to depose Khedive Ismail in order to avoid establishing democratic rule and parliamentary life as one of the repercussions and consequences of the reformation movement in Egypt .

In September 1882, Britain's occupation of Egypt by armed force was completed under the alleged reason of protecting Khedive Tawfiq from an advocate of reformist thought and leaders of the national movement with its three streams: the revolutionary, such as Ahmed Orabi and Adeeb Ishaq, the constitutional, such as Muhammad Sharif and Abd El-Salam Al-Meligi, and the Islamic, such as Muhammad Abduo. All of them were students of Gamal Al-Din Al-Afghani, and indeed Britain got rid of them and exiled

them outside the country. Egypt was ruled with iron and fire to frustrate the Egyptians' determination towards any reform of any kind. Britain ideology towards Egypt aimed to completely control or rather to dominate the Egyptian economy with its natural and human resources. This is because Britain aimed to make Egypt a market for British products, and to extend its full influence over the strategic Suez Canal passageway for British navigation, with 70% of its trade with Britain's external passing through it.

Keywords: National movement, streams, strategy, the Khedive